

١٦٥٢٩

الأزهر	مجله
ربيع الآخر ١٣٩٧	تاريخ نشر
٤٩ سال ٤	شماره
	شماره مسلسل
مصر	محل نشر
عربي	زبان
يوسف القرضاوي	نويسنده
٤٥٣-٤٤٣	تعداد صفحات
الصبر في القرآن	موضوع
	سرفصلها
	كيفيت
	ملاحظات

١٦٥٢٩

٣١١

٣١١

# الصبر في القرآن

لقضية الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عني بها الكتاب العزيز في سورة المكية والمدنية . وهو أكثر خلق - بضم الخاء - تكرر ذكره في القرآن .

ولا نعلم شيئاً ذكره الله تعالى هذا العدد الا الصبر (١) !

يقول الامام الغزالي في كتاب « الصبر والشكر » من « ربع المنجيات » من كتابه : « احياء علوم الدين » : ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً (٢) .

والناظر في « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » يجد مادة « ص ب ر » بكل مشتقاتها قد وردت في القرآن مائة مرة وبضع مرات .

وينقل العلامة ابن القيم في « مدارج السالكين » عن الامام أحمد قوله : الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً (٣) .

ولا تنافي في رأيي بين هذه التقديرات على اختلافها ، وبين الاحصاء الرقمي للمعجم المفهرس ، لأن الموضع الواحد قد ذكر فيه مادة « ص ب ر » أكثر من مرة فيحسبها

وكذلك ينقل أبو طالب المكي في « قوت القلوب » عن بعض العلماء

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٦١ ط . دار المعرفة بيروت

(٢) مدارج السالكين ج ٢

(٣) قوت القلوب ج ١ ص ١٩٧ .

بعضهم موضعا واحدا ، وبعضهم موضعين أو أكثر . مثال ذلك في قوله تعالى في أواخر سورة «النحل» :

« وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك الا بالله » (١)

فالمادة هنا ذكرت أربع مرات في آيتين ، بحيث يمكن أن تحسب موضعا واحدا ، وأن تحسب موضعين باعتبارين . وفي قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف (٢) تردد ذكر الصبر عدة مرات ، ويمكن اعتبارها كلها موضعا واحدا .

وقوله تعالى : « والصابرين والصابرات » (٣) موضع واحد بلا شك . . . وهكذا .

والصبر في اللغة : الجبس والكف . ومنه : قتل فلان صبيرا ، اذا أمسك وحبس .

ومنه قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم (٤) » أي احبس نفسك معهم .

ويقال الصبر : الجزع . كما في قوله تعالى على لسان أهل النار : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (٥) .

وهو في القرآن يعنى : حبس النفس على ما تكره ، ابتغاء مرضاة الله كما قال تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » .

وما تكرهه النفس أنواع وألوان . شتى ، ولهذا تنسع دائرة الصبر فتشمل مجالات رحبة أكثر مما يقف عنده - عادة كثير من الناس اذا ذكرت كلمة « الصبر » .

ويقول الامام الغزالي :

« اعلم أن الصبر ضربان » :

أحدهما : ضرب بدنى ، كحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو

(١) سورة النحل الآية ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) الآيات ٦٧ وما بعدها .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

(٤) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٥) سورة ابراهيم الآية ٢١ .

وان كان في حرب ومقاتلة سمي  
« شجاعة » ويضاده « الجبن » •

وان كان في كظم الغيظ والغضب  
سمي « حلما » ويضاده « التذمر » •

وان كان في نائية من نوائب  
الزمان مضجرة ، سمي « سعة الصدر »  
ويضاده « الضجر والتبرم وضيق  
الصدر » •

وان كان في اخفاء كلام سمي  
« كتمان السر » وسمي صاحبه  
« كتوماً » وان كان عند فضول  
العيش سمي « زهداً » ويضاده  
« الحرص » ••

وان كان صبوا على قدر يسير من  
الحظوظ سمي « قناعة » ويضاده  
« الشره »

فأكثر أخلاق الايمان داخل في  
الصبر •

ولذلك لما سئل عليه السلام مرة  
عن الايمان قال « هو الصبر » لأنه  
أكثر أعماله وأعزها ، كما قال  
« الحج عرفة » •

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ،  
وسمي الكل صبوا فقال تعالى :  
« والصابرين في البأساء ( أي

اما بالنعل ، كتعاطى الأعمان الشاقة ،  
أما من العبادات أو من غيرها •  
وأما بالاحتمال كالصبر على الضرب  
الشديد ، والمرض العظيم ،  
والجراحات الهائلة •

قال الغزالي : وذلك قد يكون  
محسودا إذا وافق الشرع •

ولكن المحسود التام هو الضرب  
الآخر ، وهو الصبر النفسى عن  
مشتيات الطبع ومقتضيات الهوى •

ثم هذا الضرب ان كان صبوا  
عن شهوة البطن والفرج سمي عفة •

وان كان على احتسائى مكروه  
اختلفت أساميه عند الناس باختلاف  
المكروه الذى غلب عليه الصبر •

فان كان في مصيبة اقتصر على  
اسم « الصبر » وتضاده حالة تسمى  
« الجزع والهلع » وهو اطلاق داعى  
الهوى ليسترسل في رفع الصوت ،  
وضرب الخدود ، وشق الجيوب  
وغيرها •

وان كان في احتمال الغنى سمي  
« ضبط النفس » وتضاده حالة  
تسمى « البطر » •

المصيبة) والضراء (أى الفقر) في شأن الأبرار من عباده: «وجزاهم وحين البأس (أى المحاربة) أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون» (١) •

فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعانى من الأسمى يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها، من حيث رأى الأسمى مختلفة والذى يسلك الطريق المستقيم، وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولا، فيطلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسمى فانها وضعت دالة على المعانى •

الصبر خصيصة انسانية :

ولما كان الانسان هو المخلوق العاقل المكلف المبتلى، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة •

يقول الامام الغزالي في تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته :

«الصبر خاصية الانس، ولا يتصور ذلك في البهائم ولا الملائكة، أما البهائم فلتنقصانها، وأما الملائكة فلكمالها •

فالمعاني هي الأصول والألناظ هي التوابع • ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد أن يزل» (٢) • وهذا كلام نفيس، وتحقيق جليل •

ومن هنا تفهم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح في الآخرة ودخول الجنة واستحقاق التحية من الملائكة، وذلك في مثل قوله تعالى

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٦٦ - ٦٧

(٣) سورة الانسان الآية ١٢

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٥

(٥) سورة الرعد الآية ٢٤

ويأته : أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة « صبرا » .

وأما الملائكة عليهم السلام، فانهم جردوا للشوق الى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة الترب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صادفة صادة عنها ، حتى يحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وقوة أخرى مكلمة للأولى تؤيد الانسان وتشد أزره في معركته مع الهوى وجند الشيطان ، بها يدفع في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يدفع عداوتها عن نفسه .

وأما الانسان فانه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي هو محتاج اليه ، ثم تظهر شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح (الشهوة الجنسية) على الترتيب . وليس له (يعنى في نطقه) قوة الصبر البتة، اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر ، قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي الاجند الهوى كما في البهائم .

قال الغزالي :

« فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها ( باعثا دينيا ) ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها ( باعث الهوى ) وليفهم أن القتال

قائم بين باعث الدين وبعث الهوى ،  
والحرب بينهما سجال ، ومعركة

هذا القتال قلب العبد ومدد باعث  
الدين من الملائكة الناصرين لحزب  
الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من  
الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى .

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين  
في مقابلة باعث الشهوة . فان ثبت  
حتى قهره واستمر على مخالفة  
الشهوة فقد نصر حزب الله ، والتحق

بالصابرين . وان تخاذل وضعف  
حتى غلبته الشهوة ولم يبر في دفعها  
التحق باتباع الشياطين (١) « ه .

### ضرورة الصبر

وترجع عناية القرآن البالغة  
بالصبر ، الى ما له من قيمة كبيرة  
دينية وخلقية ، فليس هو من الفضائل  
الثانوية أو المكسلة ، بل هو ضرورة  
لازمة للانسان ليرقى ماديا ومعنويا ،  
ويسعد فرديا واجتماعيا ، فلا ينتصر  
دين ولا تنهض دنيا الا بالصبر .

### الصبر ضرورة انسانية :

فالصبر ضرورة دينوية ، كما هو  
ضرورة دينية .

فلا نجاح في الدنيا ، ولا فلاح  
في الآخرة الا بالصبر .

في الدنيا : لا تتحقق الآمال ،  
ولا تنجح المقاصد ، ولا يؤتى عمل  
أكله ، الا بالصبر ، فمن صبر ظفيرة  
ومن عدم الصبر لم يظفر بشيء .

لولا صبر الزارع على بذره  
ما حصده ، ولولا صبر الغارس على  
غرسه ما جنى .

ولولا صبر الطالب على دراسة  
ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل في ساح  
الوغي ما انتصر . وهكذا كل  
الناجحين في الدنيا انما حققوا آمالهم

بالصبر ، استرأوا المرء ، واستعذبوا  
العذاب واستثنوا بالبصعاب ،

ومشوا على الشوك ، وحفروا  
الصخور بالأظافر ، ولم ينالوا

بالأحجار تقف في طريقهم . والطعنات  
تغرس في ظهورهم ، وبالشراك

تنصب للايقاع بهم ، وبالكلاب تنبح  
من حولهم ، بل مضوا في طريقهم غير

وانين ولا متوقفين . مغضين الأعين  
على القذى ، ساحين الذبول على

كان كالذي قال لابن سيرين : انى رأيتى فى النوم أسبح فى غير ماء ، وأطير بغير جناح !! فقال له : أنت رجل كثير الأمانى والأحلام : تمنى ما لا يقع ، وتحلم بما لا يتحقق الا

وفى شعر الحكم نقرأ كثيراً فى هذا المعنى • يقول أحدهم :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويقول المتنبى ، وقد كان طموحاً لمنصب الولاية :

لا يبلغ المجد الا سيد فطن

لما يشق على السادات فعلاً

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر ، والاقدام قتالاً

وفى قصيدة أخرى يقول مخاطباً نفسه :

ذرينى أتل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدىن ادراك المعالى رخصاً

ولا بد دون الشهد من ابر النحل الا

واذا كانت هذه طبيعة الطريق

الموصل الى العلا والمجد ، فلا سبيل

الأذى : متذرعين بالعزيمة ، مسلحين بالصبر ، وصدق الشاعر القائل :

وقل من جد فى أمر يحاوله

واستصحب الصبر الا فاز بالظفر

قد يعثرون ثم لا يلبثون أن

ينفضوا ، وقد يخطئون ثم يوشكون

أن يصيبوا قد يجرحون ثم لا يلبث

يجرحهم أن يندمل • وقد يفشلون

هرة ومرة فلا يلقون السلاح

ولا يستسلمون لليأس ، ولا يفقدون

ثبور الأمل • شعارهم قول الشاعر

الحكيم :

لا تياسن وان طالت مطالبه

اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لقد عرف عشاق المجد ، وخطاب

للعالى ، وطلاب السيادة ، أن الرفعة

فى الدنيا كالقوز فى الآخرة ، لاتنال

الا بركوب متن المشقات ، وتجرع

نقص الآلام والصبر عن كثير

هما يحب ، وعلى كثير ما يكره •

وبدون هذا لا يتم عمل ، ولا يتحقق

أمل ، ومن تخيل غير هذا الطريق



الى اجتيازها الا بالصبر ، ولا يقدر ليُدخل الجنة ، والى صبر عن  
عليها الا الصابرون . الشهوات ؛ لينجو من النار (١) » .

والصبر مفتاح ما يرجى وكل صعب به يهون  
فأصبر وان طال الليالى قلة الصبر عنا يحبون ، قلة الصبر  
فربما أسلس الحرون على ما يكرهون (٢) » .

وربما نيل باصطبار الصبر اذن ضرورة للناس عامة  
ما قيل : هيبات لا يكون وللمؤمنين خاصة .

هذا اذا نظرنا الى النجاح فى الدنيا ؛ فكيف اذا نظرنا الى النجاح  
فى الآخرة ؟ ! ان الحاجة الى الصبر تبدو هنا أوكد ، والضرورة اليه  
أشد وألزم .

يقول تعالى : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » (٣) .  
يقول أبو طالب المكى فى كتابه « قوت القلوب » :

« اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار ، لأنه جاء فى الخبر : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات . فيحتاج المؤمن الى صبر على المكاره ، ولقد خلقنا الانسان فى كبد » (٤) أى فى شدة ومشقة ، لما يعاينه منذ مولده من شدائد الحياة المزوجة للذات بالآلام ، وما يعاينه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ، التى

(١) قوت القلوب ج ١ . ص ٢٠٠

(٢) المرجع السابق

(٣) سورة الانسان الآية ٢

(٤) سورة البلد

تنوء بجملها السموات والأرض  
والجبال وما يعاينيه من الناس من  
حدة اللسان ، وأذى اليد وحسد  
النفس .  
أعداء الرسالات .

ولعل هذا الحسبان أو الوهم  
داخل نفوس بعض المؤمنين في العهد  
المكي بعد أن أصابهم من العذاب  
ما أصابهم ، فنزل قوله تعالى في  
سورة العنكبوت « ألم • أحب  
الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا  
وهم لا يفتنون ؟ ! ولقد فتنا الذين  
من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ،  
وليعلمن الكاذبين » (١) •

بل في العهد المدني نجد القرآن  
المدني ينفي مثل هذا الحسبان الواهم  
في مثل قوله تعالى في سورة البقرة:  
« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة  
ولما يأتكم مثل الذين خلوا من  
قبلكم ، مستهم البأساء والضراء  
وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين

ضرورة الصبر للمؤمنين :  
وأذا كان هذا شأن الانسان بصفة  
عامة ، فأهل الايمان - على وجه  
خاص - أشد تعرضا للأذى والمحن  
والابتلاء في أموالهم وأنفسهم وكل  
عزيز لديهم فقد اقتضى نظام الكون  
أن يكون لهم أعداء يكفرون بهم  
وينكيدون لهم ويتربصون بهم  
الدوائر ، كذلك جعل الله لآدم  
ابليس ، ولابراهيم نمرود ، ولموسى  
فرعون ، ولمحمد أبا جهل •  
وأمثاله » وكذلك جعلنا لكل نبي  
عدوا من المجرمين » (١) « وكذلك  
جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس  
والجن يوحى بعضهم الى بعض  
زخرف القول غرورا » (٢) •  
وكذلك يكون المؤمنون من أتباع  
الأنبياء ، هم أشد الناس بلاء بعد  
الأنبياء الأمثل فالأمثل •

(١) سورة الفرقان

(٢) سورة الأنعام

(٣) سورة العنكبوت الآيات من ١ - ٣

آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا ان نصر الله قريب » (١) .

الجنة اذن لا بد لها من ثمن ، وهي سلعة الله ، وهي سلعة غالية فلا مفر من الثمن . وقد دفعه

أصحاب الدعوات من قبل ، فلا بد أن يدفعه اخوانهم من بعد . وهذا هو ثمن الجنة : الصبر على البأس تصيب الأموال والضراء تصيب الأبدان ، والزلزلة تصيب النفوس . ولا بد أن يبلغ هذا الزلزال النفسى من الشدة الى حد يقول عنده الرسول - أى رسول - والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ يستبطئونه فقد طال انتظارهم له ، وطالت فترة الأذى عليهم ، وطالت شماتة العدو بهم ، فمتى يجيء اذن نصر الله الموعود ؟ !

وفي أعقاب غزوة أحد ، التى مس المسلمين فيها من القرع ما تسهم ، وققدوا سبعين شهيدا من أبطالهم ، ومن هنا أمر القرآن المؤمنين أن يستعينوا بعدتى الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن فى سبيل دعوتهم ، فقال تعالى فى سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين » (٤) ثم عزاهم فيمن فقدوا من أحببهم ممن اتخذهم الله شهداء فقال : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٥) .

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٣) سورة التوبة الآية ١٦

(٤) سورة البقرة آية ١٥٣ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٥٤

ومثل هذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة ما جاء في قوله تعالى « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٢) . وهنا نجد الآية تقرن بين أهل الكتاب والمشركين في إيذاء المؤمنين ، مع اختلافهما في الدين والوجهة ، ولكن هذا الاختلاف يزول عندما يكون العدو هو أهل الإيمان والتوحيد . كما رأينا اليهود يتفقون مع المشركين الوثنيين في حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكما نرى في عصرنا كيف تتفق الصهيونية العالمية والشيوعية الدولية ، والصليبية الغربية والشرقية على أمة الإسلام ودعوة الإسلام ، ولهذا قال علماءنا : الكفر كله ملأ واحدة ، وقال الله تعالى : « والذبح كفروا بعضهم أولياء بعض (١) » .  
(الدكتور يوسف القرضاوي)

ثم بين ما ينتظرهم من ألوان البلاء مؤكداً ذلك بلام القسم ، ونون التوكيد ، اذ يقول : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأثمن والشرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون » (١) .

فالبلاء هنا بلاء عام ، يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأثمن بالموت، والشرات بالآفات ، ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنه جعل البلاء « بشيء من الخوف والجوع ونقص . الخ » وتكبير « شيء » هنا - كما يدل عليه السياق - للتقليل والتحقير ، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فبمسهم بشيء قليل ضئيل من البلاء ، تخفيفاً عنهم، ورحمة بهم ، وتقديراً لضعفهم .

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥ ، ١٥٦

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٦

(٣) سورة الأنفال

4 . 01

1731  
1731

17021

4 . 01